المحـ ـ ـل

س. راجا أتنام

س. راجا أتنام سنغالي، درس القانون لعدة سنوات في انجلترا. وكتب أثناء الحرب قصة خيالية عن الغزو الجوي. [وقصته هذه نشرت في مجلة آسيا في سبتمبر عام 1941

* * *

أنّت الأرض المجهدة وارتعشت تحت وهج الشمس الرتيب. وارتفعت أبخرة حلزونية من الأرض كأنما ترتفع من حمم مصهورة . وزحفت سحلية لاهثة بألم فوق الصخرة الرمضاء تبحث عن خصص ظليل. وتمسكنت الأبقار والكرب تحت ظل الشجر الضئيل، وارتقبت الغيث كي ينجيها من الوقدة والعطش. ولكن الحر اشتدّ أواره يوما بعد يوم، يلفح ويكتم أنفاس الأحياء بدثار من لهب غير منظور لايطفئه سوى وابل المطر.

واستمر المحل بما يزيد عن شهر. وفي كل يوم كان المزارعون يتفرسون بقلق في السماء ليجدوا طيوف الغيمات قد نزحت. فتمتلئ قلوبهم بغيظ يبين فـي تعابير وجوههم الباسرة. وكان محصولهم من الأرز الذي لم يجمع قد أخذ يتغضن رويدا رويدا في الحقول. وفضلا عن هذا فان الأبقار ستهلك عطشا فيما لو استمرّ المحل.

وكان بعض القرويين قد قاموا بمحاولات فاشلة للحفر عن ماء فما وجدوا فوق الأرض ولا تحتها ما يبل الظمأ، وكل ما كان لديهم من ورد كان في حوضين في القرية. ولكن حتى هذا المورد قد ضحل وأخبروا أنه لن يكون مزيد من الماء للأبقر.

وكان "فيلا مودليار" يملك حوضا آخر بوسعه أن يزود الأبقار بالماء فترة من الزمن، غير أنه رفض أن يسمح للقرويين أن يستسقوا لأبقارهم من حوضـه. فعرضوا عليه أن يدفعوا ثمن الماء. ثم التجأوا للتهديد ولكن المودليار كان عنيـدا في رفضه. لقد رأى في أزمتهم الحاضرة فرصة للإثراء، فردّ مطلـبهم بعـرض

آخر وقال أنه مستعد ليشتري أبقارهم بسعر منخفض للغاية. وعندما رفض المزارعون عرضه الجائر جابههم بما زادهم مرارة، وأومأ اليهم بأنهم أحرار ان كانوا يفضلون أن يسلموا أبقارهم لسكين الدّبّاغ.

وبعد امتناع قصير استسلم المزارعون جميعهم للمودليار الاّ "الشيخ كاثار".

كان الشيخ كاثار مصابا بحمّى طفيفة وقد استلقى على حصير تحت ظل سقف الجريد البارز خارج كوخه. وبالرغم من تجاوزه الخمسين الاّأنه كان لايزال يبدو قويا. ولقد أفلت مما يصيب المزارعين في سنه من مصير قاس بما ورثه من صفات جسدية خارقة حتى ولّدت هذه المؤهلات في نفسه الإعتقاد بتفوقه وبقواه التي لايخمد تأججها.

كرّس كاثار حياته لاستعادة الأرض التي كان يملكها أجداده. وقام بعمله على وجه مرض، وأدّى واجبه نحو آبائه. وحين يرحل عن هذا العالم فسيخلّف ولديه ليستمرا نحو بلوغ الهدف.

ونظر الى "راسو" ابنه الأكبر. كان راسو عملاقا. ومما يبعث الغبطة في النفس أن يراقب عضلاته وهي تعلو وتنخفض كأنها موجات بحر وهو يكدّ في الحقول. كان ساذجا صبورا دمث الأخلاق حتى أن زوجة "ساراسفاتي" كانت تمزح معه بغير أن تخشى طائلة العقاب. كان ابنا بارا، وان لم يكن ذا فكر ثاقب فانه عوض من القوى الجسدية بما يفيض.

أما "سوريار" فانه كان مشكلة مستعصية. كان هزيلا في صحته، وعرّضه بنيانه الهش مرارا لنشبات المرض. وكان ينحني في مشيته وكأنه مصدور. ويميل الى الصمت والكآبة ويطالع بكثرة. وحين يتحدث يفيض بعاطفة متوقدة وعنف لايصدران عن انسان واهن. وأما آراؤه المنبثقة فكانت تخيف كثيرا من الزرّاع، فهو يتهكم ويسخف معتقداتهم وتقاليدهم بمنطق ساخر لايستطيعون الرد عليه. كان يتحدث عن الحقوق والعدالة تجاه المظلومين والحقد في قلبه موغر على أمثال المودليار، حقد يصعب على أفهام المزارعين أن يدركوه. وكم أذهلهم أن يدعوهم للإتحاد ومحاربة مضطهديهم!.

عارض سوريار مبيع الثور "آخي" الى المودالیار. وكان احتدامه يشتدّ كلما حاول كاثار وراسو مناقشة الأمر معه، فأهون عليه أن يرى الثور ميتا من أن يقبل بمساومة لص. بل انه هدّد بالفتك بالمودليار فأذعن كاثار لرغبات ابنه خـوف أن ينفذ هديده.

استلقى كاثار على الحصير البليلة بالعرق ونظر الى سوريار وقـد حـار كيف يبدأ معه قضية آخي. أما ابنه فكان يبدو أنه غارق في مطالعة كتاب، كعادته إذ لايجد ما هو أفضل ليفعله. وقربه جلس راسو القرفصاء وهو يـتململمن الحـر ويشير الى بطنه الملتهب يرشح منه العرق وينحدر. وخلفه على جدار من اللـبن قطع سوداء رطبة مما امتصته من ظهره. وأخذ يلتفت من حين لآخر لينظر الـى زوجته وهي مشغولة في الداخل.

وساد سكون عميق برهة من الزمن حتى أغلق سوريار كتابه بغتة وهتف: "أليس لهذا الحر من نهاية!"

وأجاب راسو موافقا: "أوم! أوم! انني أحترق وكأنني في سعير. حتى هذه الجدران تتنفس بخارا ساخنا. ليرحمني الله! لن يمضي وقت طويل حتـى أغـدو رمادا."

وصاح سوريار وهو يمسح وجهه بشاله: "سأختنق في هذا الحـر، ليتهـا تمطر! ليتها تفيض سيولا! فخير لنا أن نغرق في فيضان من أن نـشوى أحيـاء ونموت صدى.أنظر اليهم جميعا كيف يستسلمون الى مصيرهم بوداعة! بكم، بكـم جميعهم."

وابتسم راسو ببساطة لانفجار سوريار. كان أخوه غريب الأطوار، ولكن، مهما يكن من أمر، فهو يحبه. والتزم سوريار الصمت وقد أجهده الإنفعال. ورأى آخي وهو يسير بوهن نحو شجرة نخل. وبلغه صوت احتكاك جاف والثور يلعـق الشجرة آملا أن ينضح غلته. ثم نظر صوب الكوخ وعاد متمهلا نحو الحظيـرة، ورفع شفتيه المنتفختين الجافتين وأخذ يرعى العشب الذاوي.

وقال راسو وهو يهز رأسه ببطء : "مسكين آخي، لـن يلبـث أن يمـوت عطشا." وأخذ يتكتك بلسانه بعطف.

فالتفت سوريار بغتة نحو أخيه: "ولم لاتعطيه نهلة صغيرة، بدل أن تتوجع لآخي المسكين؟ شربة صغيرة!"

وأجاب راسو محتجا: "هذا سهل قولا ياأخي الأصغر، ولكن أنى لنا بالماء؟ فما يوجد منه لايكفي لأهل الدار. ولقد أخبروني أننا لن ننال حتـى هـذا النـزر اليسير من الحوض في المستقبل." ثم أردف بانبساط: "أخذت لاخي شربة من الماء هذا الصباح. فماذا تظن قد حدث؟ أمسكت بقشرة جوز الهند المملوءة وقربتها منه، وكان العطش قد أخذ من المسكين كل مأخذ فجن جنونه لرؤية الماء ودفعها مـن يدي. وكان على هذا الأحمق أن يكتفي بما استطاع أن يلعق منـه مـن الأرض. مسكين آخي!"

وهز رأسه الضخم. وبقي سوريار محملقا أمامه.

وشق السكون صوت كالثار واهنا من الحمى: "سوري، لم لاتـدعنا نبيـع آخي للموداليار؟ فلا فائدة من استبقائه ورؤيته ينفق هكذا. فلو بعنـاه لـن يمـوت عطشاعلى الأقل."

وأحنى راسو رأسه موافقا وقال: "ان والدي على حق ياسوري. فلن يفيـد أحدا ترك آخي يموت. مسكين آخي! انه لايستطيع حتى أن ينبئنا بما يقاسي."

ونظر سوريار اليهما معا وشفتاه منفرجتان ترتعشان: "ماذا تقولان أنتمـا الإثنان! أليس لديكما كرامة؟ جميل، جميل. أتبيعان آخي الـى الوغـد المحتـال وتعترفان أننا قهرنا؟ انه لمنظر طريف أن نزحف أذلّة عائدين الى المودليار."

وقال الشيخ بهدوء: "ولكن ياسوري ، اذا رفضنا أن نبيع آخي فلـن ينـال الأذى سوانا. ان ثورا واحدا لن يزيد في ثروة الموداليار. فهو غني جـدا. وأمـا كرامتنا فكنا نحفظها لو بعنا الثور منذ عهد بعيد بغير ضوضاء."

فقاطعه سوريار قائلا: "ألا تدركان أنتما الإثنان ماذا أعنـي؟ والـدي، آن الأوان لنقاوم أناسا مالموداليار فيعلموا أن ليس بوسعهم نيل كل شيء كما يشتهون. يجب أن نظهر للجميع أننا نحن الفقراء لسنا عبيدا لرغبات الموداليار ."

- "ولكن، ياولدي، أنت تحارب الهواء. فأي سلاح تواجه به الموداليـار؟ كل شيء في جانبه وليس لديك سوى لهب الشباب."

وارتعش سوريار كأنما تيار من العواطف ملأ كيانه: "انني أستطيع أن أقتل خنزيرا وأطعم لحمه للكلاب. وبيدي ساقتله وأغتبط أن أريحت العالم من مثل هـذا الخنزير."

فصاح والده: "سوري! سوري! أنت لاتدرك ماتقول. عدني ياولدي البائس المسكين، أنك لن تقدم على عمل طائش. كل هذا عبث. وليس سوى الله بقادر على إهلاكهم."

وحاول سوريار المقاطعة ولكن كاثار أردف: "والى هذا فأنت ترى آخـي ومك يقاسي. انه مخلوق أعجم، ياسوري، وليس لك الحق أن تعذبه هكذا. فان يمت فستقع الخطيئة على رؤوسنا."

فنظر سوريار بكآبة الى والده ثم راسو وقد زمّ شفتيه المرتعـشتين وقـال وهو ينتصب على قدميه: "حسنا يا والدي افعل ما تريد. انه ثورك. أتريدني علـى أخذ آخي الى المودااليار؟"

فأجاب والده برقة: "أفضل أن يأخذه راسو الى المودااليار."

واستدار سوريار على كعبيه ودخل الكوخ. وشعر بالظمأ فغمس كوبا فـي الجرة الخزفية واذا بسارا سفاتي تصيح: "احرص على الماء، ياسوري، فليس هناك الا القليل في الجرة."

فتغمّر ببضع رشفات وأعاد الكوب. ثم تلفّع بشال علـى رأسـه وتـرك المنزل.

كانت الأرض تتوقد تحت قدميه، ووهج الشمس يؤذي عينيـه، والمنـاظر ترتعش أمامه كأنما ترى من زجاج بليل. وعطف الى طريق غير قاصـدا بيـت صديقه ناثان.

وعندما عاد سوريار الى منزله كانت الشمس قد انحـدرت الـى الأفـق المخضب بلون البرتقال. وبالرغم من أن حرارة النهار الخانقة كانت قد تلاشـت، الاّ أن لفحا جافا مازال يتردد في الهواء. واستراح حوله هدوء نـائم امتـد نحـو المدى البعيد. وبينما كان يسير ركل كومة من التراب الناعم فالتصق بقدمه العارية وحواشي ثوبه. ان الريف جميعه يبدو هادئا لطيفا في تلك اللحظة. ومن المحتمـل

أن تتدحرج الغيوم في الغد بكسل تحت السماء وتعصر ماءها. وعند÷ا تجلس الخليقة في الأسفل تسبح الإله.

ورغم هذا فان سوريار كان لديه سبب أفضل ليجعله رضيّا. ورفرفت ابتسامة على وجهه إذ فكر بما فعل للمودليار.

في الغد، وربما قبل المغيب، كل ماشية المودالیار ستنفق. ان ناثان أعطه السمّ وأكّد له أن قدرته كافية لتسميم حوض المودالیار. كانت مخاطرة جريئة أن يزحف الى الحوض ويفرغ السمّ فيه، فالمودالیار كلف حارسا ليرقبه فطنة وحذرا. ولكن سوريار استطاع بطريقة ما أن يزوغ من تيقظالحارس ويصب السم. ولن تلبث الأبقار أن تشرب السم وتموت.

لقد ثأر لجريمة. ان المودالیار يستحق ما سيصيبه ولن يحزن لأجله أحد. وحتى لو اكتشف مرتكب الجريمة، فسيحظى سوريار بعطف وحماية الفلاحين. وعلى كل حال لن يسمح لأحد أن يطلع على ما فعل. انه لايعرف أحدا يدري أنه وضع السم في الحوض سوى ناثان. وهو يستطيع أن يثق بناثان في كتم السر.

وهمهم بنعومة وأسرع الخطى وقد شعّت عيناه بشعور الفوز. دفع باب المنزل فاذا به يسمع عويلا في الداخل. فتوقف وأحس بقشعريرة في جسده. وكان أول ماخطر لذهنه أن أحدا رآه يرمي بالسم في البئر وجاء ليلقي القبض عليه. فاصطكت ركبتاه، وأصغى. كان نحيب ساراسفاتي يرتفع عاليا فوق أصوات الآخرين. واستطاع أن يميز أيضا أصوات الرجال. وببطء انبثق في ذهنه الخاطر أنه يصغي الى واعية. وأحس بغثيان في قلبه ومعدته. توفي أحد في المنزل وهو يعلم بوثوق من يكون.

بعينين مضرجتين من البكاء، وضع راسو ذراعه حول أخيه معزيا فهتف سوريار: "كيف؟ لاأستطيع أن أصدق. كان معافى قبل أن أتركه.

فانفجر راسو بغتة بزحير حاد.

وأمسك سوريار بذراع أخيه: "ان الكيفية التي مات بها رهيبة، يا سوري، لم يمت بسلام.. أنظر الى وجهه، لقد لواه الألم. لم يمت كما كان جديرا به أن يموت. قاسى تباريح العذاب.

- "هذا مستحيل. ماذا حدث له؟"

وأجابه راسو خلال شهيقه: "كنت ووالدي نتحدث عنك. لم يكن به من شيء حينذاك. ولكنه شعر بالعطش فأعطيته كوبا من الماء. ومالبث أن سمعته يصيح من الألم. كان هناك يتقلب ويتلوّى ويرفس. أواه ياسوري!"

واحس سوريار بسكين حاد تغرز نصلها في أضلعه. نصلا باردا ، باردا قاسى منه آلام النزع.

وردد بصوت أجش: "ماء؟ ماء؟ راسو، من أين جئت بالماء؟ أجبني من أين؟"

وتوقف راسو عن النحيب إذ رأى ملامح أخيه المنفعلة. انه يشعر بارتعاش سوريار كقشة في مهب الريح. وتلعثم راسو: "من الجرّة!"

- "نعم أعلم هذا، ولكن أين ؟ من أين؟

- "من حوض المداليار. لم يكن هناك ما يكفينا من الماء. وهكذا عندما ذهبت لأبيع آخي، سألتهم بعض الماء."

وصاح سوريار وهو يلوّح بيديه في الهواء: "أيها الأحمق، أيها الأحمق المسكين، انه مسموم. أنا الذي سممته. دعني أذهب."

وانفلت من قبضة راسو. وعلى وجهه نظرة وحشية. وصاح راسو بذعر: "سوري! سوري!"

ولكن سوريار أمسك الجرة واندفع من المنزل. ورفعها فوق رأسه وهو ينتحب كأنما أصابته نوبة هستيرية وحطمها على الأرض.

وانتشرت فوق الأرض بقعة سوداء من الماء وداعبت أديمها الأجدّ بأصابع باردة متحركة. فعبّت الأرض الظمأى الماء بنهم، بنهم سعار.

* * *